سرّ الإفخارستيّا: أربعة أسرار في واحد

الأب ميلاد الجاويش المخلّصيّ

أن نتكلّم، نحن معشر المسيحيّين، عن الإفخارستيّا، لهو أمرٌ فيه مهابة، لأنّنا بذلك نكون قد وطئنا أرضًا مقدّسة. لا أحد منّا يمكنه أن ينكر ما لهذا السرّ، في وجدان المسيحيّ وتفكيره، من محبّة واحترام بل من عشق وتقديس.

غير أنّنا، عبر خبرتنا في كرسيّ الاعتراف وفي تعاطينا مع الناس، نشعر بأنَّ هذا السرّ الجليل يمرّ في أزمة، شأنه شأن باقي الأسرار كالمعمودية والتوبة والزواج... لأجل ذلك، لا تغرّنا رؤية الكنائس مليئة بالناس، لأنّ العدد ما كان في يوم من الأيّام مقياسًا جيّدًا للأصالة وصفاء المعتقد. لهذا لا بدّ من الإضاءة على لاهوت الإفخارستيّا الصافي الذي نجده، أوّل ما نجده، في الإنجيل المقدّس.

في الواقع، نجد في العهد الجديد لاهوتًا عن الإفخارستيّا هو في غاية الروعة. بولس الرسول كان أوّل من كتب في هذا المجال، بالرغم من أنّه لم يكن واحدًا من مجالسي يسوع على العشاء في تلك الليلة الأخيرة في علّيّة أورشليم. جاء كلامه هذا في معرض ردّه على مشكلة كانت تعاني منها **كنيسة كورنثس**، عندما كان مؤمنوها يجتمعون ليتناولوا "عشاء الربّ"(**١كو ١١: ١٧-٣٤**). من خلال هذا النصّ البولسيّ، سنحاول إلقاء الضوء على أربعة أبعاد لسرّ الإفخارستيّا[١]، أبعاد لا يمكن أن تنفصل أبدًا عن كلّ محاولة لنا لفهم هذا السرّ.

١) الإفخارستيّا سرّ الجماعة

"**وأنتم حين تجتمعون في جماعة**" (١كو ١١: ١٨)، هذه ترجمة حرفيّة للنصّ اليونانيّ الذي يستعمل كلمة "**إكليسيّا**"، والتي تعني "جماعة". كان المسيحيّون القدماء يجتمعون سويّة في أحد البيوت "للمشاركة وكسر الخبز" (أع ٢: ٤٢). هذا العمل لم يكن يتمّ أبدًا بشكل فرديّ، كلّ واحد على حدة، بل في جماعة.

وهذا بالضبط الشيء الذي لم يفهمه مسيحيّو كورنثس الأوّلون، المرتدّون حديثًا إلى المسيحيّة من بيئات مختلفة ومن مجتمعات متناقضة: فمنهم من كان ذا حسب ونسب (الأسياد، والأشراف...)، ومنهم

---

[١] البعدان الأوّلان، "الإفخارستيّا سرّ الجماعة" و"الإفخارستيّا سرّ الملكوت"، مستوحيان من كتاب: ألكسندر شميمن، **الإفخارستيّا سرّ الملكوت**، تعريب سامر عبّود، منشورات النور، بيروت ١٩٩٣.

من كان ذا أصول وضيعة (العبيد، والعمّال...). وعندما كانوا يجتمعون لتناول "عشاء الربّ"، كانوا يحملون معهم إلى الاجتماع انقساماتهم الاجتماعيّة، فكان كلّ فريق يجلس على حدة من دون أن يشارك الآخرين طعامه. هذا التصرّف الشاذّ أثار غضب بولس الرسول، الذي كان يعتبر أنّ وحدة الكنيسة هي خطّ أحمر لا يمكن لأحد أن يتجاوزه. فكتب فورًا إلى جماعة كورنثس بغية توضيح الأمور ووضع حدٍّ لهذا الوضع المقيت، الموروث من الوثنيّة اليونانيّة العنصريّة. بالنسبة إلى بولس، وحدة الكنيسة هي من وحدة الجماعة، ووحدة الجماعة تتجلّى في أحلى مظهرها في "**اجتماع**" الجماعة "**معًا**"، أثناء الاحتفال الإفخارستيّ، حيث لا مكان للفرديّة أو للانعزال الناتج عن الأنانيّة البغيضة.

البعد الأوّل للاحتفال الإفخارستيّ هو إذًا أنّه جماعة، جماعة تلتقي، تتواجد "معًا" في الاحتفال. هذه الـ"مع" واضحة أيضًا في الفعل الذي استعمله بولس والذي يبدأ بـ"**سين**" اليونانيّة، والتي تعني "**مع**" ("تتواجدون معًا"). إنّ المؤمن، عندما يحتفل بالإفخارستيّا، لاسيّما يوم الأحد، **يؤلّف بذلك، مع جماعة المؤمنين، الكنيسة، ويحقّق ما صاره يوم معموديّته، أي أنّه يحقّق عضويّته في الكنيسة، "جسد المسيح"**. إنّه لا يذهب إلى الكنيسة ليصير إنسانًا أفضل، أو ليطلب معونةً أو تعزية – فهذا يمكنه أن يحصل عليه في عيادة طبيب نفسانيّ – ولا أيضًا لينضمّ إلى مجموعة تراكميّة من أناس خطأة غير مستحقّين، بل ليحقّق ما هو عليه، أي هويّته المسيحيّة، وليعلن حضور المسيح وظهور ملكوته في العالم. من هنا تخطّت الكنيسة حاليًّا العادة التي كانت متفشّية في القديم، والتي كانت تقوم على أن تحتفل مجموعة من الكهنة بقداديس منفصلة، كلّ كاهن على مذبح، داخل كنيسة واحدة، سواء من دون جماعة أو ضمن جماعات مستقلّة بعضها عن بعض. هذه العادة الغريبة عن جوهر الإفخارستيّا زالت شيئًا فشيئًا من قاموس الكنيسة.

في الكنيسة الأولى، ومنها كنيسة كورنثس، كان المؤمنون يذوبون في العالم خلال النهار، بشكل سرّيّ، كلّ واحد في عمله، من دون أن يتعارف الأخ على أخيه: السيّد في قصره، والبحّار على سفينته، والعبد في خدمته... وما كانوا يتعارفون على بعضهم البعض إلاّ في المساء، أثناء "العشاء". هناك، كان كلّ واحد يفقه أنّه ليس وحيدًا في الديانة الجديدة بل ينتمي إلى جماعة، وأنّه مسيحيّ عضو في جسد واحد، وأنّه يؤلّف مع غيره من الأعضاء الكنيسة المنظورة. من هنا نستطيع القول إنّ لا مسيحيّة من دون انتماء إلى جماعة، تمامًا كما لا عضويّة في حزب من دون ممارسة والتزام. وبحقّ قيل أيضًا: "**الإفخارستيّا تصنع الكنيسة، والكنيسة تصنع الإفخارستيّا**".

نشدّد هنا على هذا البعد الجماعيّ للإفخارستيّا حتّى يفهم كلّ مؤمن **أهمّيّة وجوده، كفرد، في وسط الجماعة المحتفلة.** فهو إذا صلّى، حثّ من حوله على الصلاة، وإذا كان مصدر تشويش

وفوضى، شتّت ذهن المحيطين به ومنعهم من الصلاة بهدوء. لهذا أيضًا نرى الكهنة يشدّدون في الكنائس، مثلاً، على ضرورة أن يرتدي المؤمنون ثيابًا محتشمة، وأن يُطفئوا قبل دخولهم الكنيسة أجهزة الهاتف الخلويّ، وذلك لأنّ **كلّ تصرّف لا يليق من قبل شخص واحد يعكّر صفو الجماعة كلّها**.

٢) الإفخارستيّا سرّ الملكوت

في الإفخارستيّا نُنشد الملكوت ونَنشده، وذلك منذ البداية: "مباركة مملكة الآب والابن والروح القدس" (إفتتاحيّة القدّاس حسب الطقس البيزنطيّ).

في الإفخارستيّا **يخرج** المؤمن من عالم "هذا العالم"، **ليصعد** إلى عالم ملكوت الله، هناك حيث الله هو الملك، وهو "الكلّ في الكلّ" (١كو ١٥: ٢٨). هذا الارتقاء إنّما يتمّ "برفع قلوبنا إلى العلاء"، وإهمال "كلّ اهتمام دنيويّ" (من أنافور القدّاس حسب الطقس البيزنطيّ).

الكنيسة، قديمًا، كانت تجتمع في السرّ والخفاء، تجتمع "والأبواب مغلقة" (يو٢٠: ١٩). لهذه "الأبواب المغلقة" رمز في غاية الجمال: هو أن **تدخل إلى الإفخارستيّا تاركًا على عتبة الباب، خارجًا، همومك اليوميّة و"ارتباكك بأمور كثيرة"** (لو ١٠: ٤١)، حتّى يتاح لك التمتّع، في الداخل، بما هو لله. كلّ الخطر يكمن في أن نُدخل معنا إلى القدّاس العالم وكلّ ضجيجه، فيصعب علينا بالتالي "الوقوف الحسن والمتهيّب" (من أنافور القدّاس حسب الطقس البيزنطيّ) في حضرة الربّ. كم من مرّة وقعنا، للأسف، على بعض المؤمنين الذين يُدخلون معهم إلى القدّاس مسلسلاتهم، وأحاديثهم عن الطبخ وعن موضة الثياب...!!! هذا ما كان يجري بالضبط مع أهالي كورنثس، الذين حملوا معهم إلى "عشاء الربّ" أعشيتهم "الخاصّة"، من هنا استحقّوا من بولس الرسول التوبيخ القاسي: "أفليس لكم بيوت تأكلون فيها وتشربون، أم إنّكم تزدرون كنيسة الله" (١كو ١١: ٢٢).

عدا ذلك، إنّ **كلّ ما في الكنيسة يساعد المصلّي على الارتقاء شيئًا فشيئًا نحو عالم السماء**. فأينما التفتَ يرى أمامه الأيقونات المقدّسة، وحوله رائحة البخّور الذكيّة، وفوقه أنوار الشموع البهيّة، وعلى مرمى عينيه روعة الألبسة الكهنوتيّة، وعلى مسمع أذنيه رخامة الترانيم الملائكيّة... هذا كلّه، وإن لم يفهم أحيانًا معنى رمز كلّ حركة وكلمة، يدخله في عالم الله: المؤمن الحقيقيّ، يقول **ألكسندر شميمن**، "قلّما تمّمه الشروح المعقّدة والمنمّقة التي تشرح له أنَّ الطقس الفلانيّ يصوّر كذا، أو أنَّ إغلاق الباب الملوكيّ وفتحه يعبّر عن كذا. كلّها علامات تتجاوز بساطته. فإيمانه أبعد ما يكون في حاجة إليها. ما يوقنه هو أنّه خرج لفترة وجيزة من "هذا العالم"، ليلج مكانًا آخر كلّ شيء فيه يدور حول "الآخر"... وهذا المؤمن عينه يعلم أيضًا أن على رغم عدم قدرته في بعض الأحيان على فهم هذه الحركة أو تلك

الكلمة، فإنَّ ملكوت الله أُعطِيَ له، له في الكنيسة وفي "عمله المشترك" في قلب الجماعة التي تقف في حضرة الله لترتقي إليه بحبّ"[٢].

لا المؤمن فقط يرتقي صعودًا، بل **الخليقة بأسرها تصعد أيضًا معه نحو خالقها**. فها هي الخمرة، عصير الكرمة، وها هو الخبز، خلاصة تعب الإنسان، يصيران محلاً يستقرّ فيه لاهوت المسيح؛ وها هو خشب الأشجار يقدّم على المذابح رائحة بخّور ذكيّ أو أيقونة تحوي ضمن إطارها أناسًا من عالم الله. هكذا تتمّ صلاتنا أيّما إتمام: "**ما لك ممّا هو لك، نقرّبه لك عن كلّ شيء، ومن أجل كلّ شيء**" (من أنافور القدّاس حسب الطقس البيزنطيّ).

٣) الإفخارستيّا سرّ التوبة

"رأيتُ العنف والخصام في المدينة، يحومان فوق أسوارها ليل نهار، وفي وسطها الإثم والشقاء" (مز ٥٥: ١٠-١١). قد يكون كلام صاحب المزامير هذا أدقَّ وصف يمكننا أن نعطيه لعالمنا اليوم. نحن المؤمنين "لا نزال في العالم" (يو ١٧: ١١)، وكثير ممّا فيه يجرّنا نحو الخطيئة، لذلك "فينا كثير من الضعفاء والمرضى"، على حسب قول القدّيس بولس (١كو ١١: ٣٠).

ما نعيشه اليوم قد تكون مدينة كورنثس أفضل نموذج له. كانت هذه المدينة تُعتبر أكثر المدن اليونانيّة فسقًا وفسادًا وانحطاطًا في الأخلاق، لدرجة أنّ أيّ امرأة كورنثيّة، مثلاً، كان يُنظر إليها من قِبل ناس ذلك العصر على أنّها زانية فاسقة، فقط لأنّها من كورنثس. لكن في وسط هذه المدينة المتوحّشة، كان هناك نفرٌ يسير من المسيحيّين يحتفلون سويّة بذبيحة الإفخارستيّا الطاهرة، ويسمعون كلام الربّ القائل: "خذوا كلوا، هذا هو جسدي الذي يُكسر لأجلكم **لمغفرة الخطايا**... إشربوا من هذا كلّكم، هذا هو دمي، دم العهد الجديد، الذي يُهَراق عنكم وعن كثيرين **لمغفرة الخطايا**". نعم، لم تقف الخطيئة عائقًا أمام تدفّق النعمة، نعمة الغفران. هكذا كان في كورنثس، وهكذا يكون كلّ مرّة نذكر فيها موت الربّ وقيامته في الإفخارستيّا. **جوهر الإفخارستيّا إذًا هو أنّها "لمغفرة الخطايا وكمال ملكوت السماوات"** (من أنافور القدّاس حسب الطقس البيزنطيّ).

هذا البعد التكفيريّ للإفخارستيّا طالما تنساه المؤمنون، فنرى بعضهم يُمسكون عن المناولة بحجّة أنّهم لم يعترفوا قبلاً بخطاياهم. إنّهم كمثل مريض امتنع، فقط لأنّه مريض، عن أخذ الدواء الشافي لمرضه. **إنّ تناول جسد الربّ ودمه، كلّ يوم أحد، لهو أجمل تدبير أقامه الربّ يسوع ليجدّد بواسطته حياة**

---

[٢] ألكسندر شميمن، **الإفخارستيّا سرّ الملكوت**، ص. ٧٠.

المؤمنين به، ويغسل قلوبهم من دنس الخطيئة. هذا لا يُلغي بالطبع ضرورة التقدّم من حين إلى آخر من سرّ التوبة، أقلّه عدّة مرّات في السنة أو عندما تستدعي الحاجة الملحّة.

"فليختبر كلّ إنسان نفسه، يقول بولس الرسول، ثمّ يأكل هكذا من هذا الخبز ويشرب من هذه الكأس... مَن أكل خبز الربّ أو شرب كأسه ولم يكن أهلاً لهما، فقد أذنب إلى جسد الربّ ودمه" (١كو ١١: ٢٧-٢٨).

٤) الإفخارستيّا سرّ الشكر

من الشكر تستمدّ الإفخارستيّا اسمها. فالكلمة اليونانيّة "**إفخاريستيّا**" تعني "فعل الشكر الجزيل"، وهي تأتي من فعل "**إفخاريستيو**"، أي "شكر شكرًا جزيلاً".

الإفخارستيّا هي قمّة الشكر لله، وهذا واجب على الإنسان: "لنشكرنّ الربّ – واجبٌ وحقّ" (من أنافور القدّاس حسب الطقس البيزنطيّ). الطقوس الليتورجيّة، على مختلف أنواعها، تركّز كلّها على هذا البعد في الإفخارستيّا. فهي تعترف اعترافًا قويًّا بأنّ ما للإنسان وما عنده هو ليس منه، بل نعمة أعطيت له من علُ: "نشكركَ على عطاياك ونعمك المعروفة والمجهولة، الظاهرة والخفيّة" (من أنافور القدّاس حسب الطقس البيزنطيّ). لهذا تصلّي الكنيسة مع القدّيس **إغناطيوس دي لويولا** أجمل صلاة أصعدها قلب إنسان: "ربّي، تقبّل ذاكرتي وعقلي وإرادتي كلّها... كلّ ما لديّ هو منك، كلّ ما أملك هو منك...".

"وبالشكر تدوم النعم"، هكذا يقول المثل الشعبيّ، وهذه حقيقة ثابتة، أزليّة وأبديّة. في علاقاتنا مع بعضنا نحن البشر، كم نشمئزّ من شخص ينكر جميل شخص آخر أنعم عليه. لذلك نعتبر أنّ الشكر واجب بديهيّ تجاه أيّة عطيّة تمنح لنا. حتّى يسوع، كان الشكر من أعزّ الأحاسيس الإنسانيّة على قلبه. فهو كان، عادةً، لا يطلب شكرًا على معجزة منّ بها على مريض مسكين، لكنّ نكران الجميل كان يؤلمه كثيرًا. هذا ما شعر به، يومًا، بعد إبرائه عشرة بُرص، لم يَعد منهم إلاّ واحد ليشكره. لاحظوا الأسف في كلامه: "أليس العشرة قد برئوا؟ فأين التسعة؟ أما كان فيهم من يرجع ويمجّد الله سوى هذا الغريب؟" (لو ١٧: ١٧-١٨). هؤلاء البرص العشرة إنّما هم صورة مصغّرة عن البشريّة جمعاء: تسعون بالمائة منها ينكرون جميل الله عليهم، وعشرة بالمائة فقط يعترفون بجميله عليهم. لذلك الإفخارستيّا هي أن **تقتطع وقتًا من زمانك، وتعود إلى المُنعم عليك، لتقول له: "شكرًا جزيلاً".**

خاتمة

بعد هذا الكلام الأصيل في الإفخارستيّا، كم نرى أنفسنا أحيانًا في غاية السخافة، لاسيّما عندما نظنّ أنّنا، بتذاكينا البشريّ، نحتال على الله: فنرى بعضًا منّا يتأخّر عن القدّاس قصدًا "حتّى ينكسر سمّه"، وبعضًا آخر يلهث راكضًا حتّى "يلحق" القدّاس قبل الإنجيل، أو على الأقلّ قبل "الكلام الجوهريّ"، حتّى "يرتاح ضميره" فيتقدّم في "صفّ" طويل من المناولة المقدّسة...!!! من لا يزال يفكّر بهذه الطريقة، فهو سيبقى، في تعامله مع الإفخارستيّا، أسير الواجب والقانون.